# ظُهُورُ الحَضَارَاتِ وَسُقُوطُها مِن مَنظَارِ القُرآنِ الكَرِيمِ

◆ قراءة: **الشيخ محمد باقر حيدر**[1]


## ■ خلاصة

يسعى كتاب «ظهور الحضارات وسقوطها من منظار القرآن الكريم» إلى استخلاص القوانين الحاكمة على المجتمعات والحضارات، خصوصًا القوانين المؤدِّية إلى سقوط الحضارات أو ازدهارها.

ينطلق الكتاب من التأكيد على الفهم الاجتماعي لحياة الإنسان، وعلى النظرة السُّنَنيّة لحركة التاريخ. فالتاريخ ليس مجموعة من الأحداث المبعثرة، إنّما هو سلسلة من المسائل المنتظمة التي يمكن اكتشاف عللها وقوانينها.

يشير الكتاب إلى المفهوم القرآني «للسُّنّة»، ويعرض القانون الأساس الحاكم على السُّنَن الاجتماعية كلّها. كذلك يستخلص الكتاب من القرآن الكريم ثمانية قوانين وسُنَن اجتماعية تؤدِّي إلى سقوط المجتمعات والحضارات. في المقابل يلفت إلى وجود ثلاثة مفاتيح أساس لتطوّر المجتمعات وازدهار الحضارات.

ويختم الكتاب بالإشارة إلى مستقبل العالم ونهاية التاريخ، معتبراً أنَّ القواعد القرآنية تؤكِّد غلبة الحقّ على الباطل، واستحكام حكومة المستضعفين أتباع الأنبياء عليهم السلام.


**الكلمات المفتاحية:** ظهور الحضارات، سقوط الحضارات، نهاية التاريخ، القرآن الكريم، النظرة السُّنَنيّة.

١ - باحث دكتوراه لبناني في علوم القرآن، جامعة المصطفى العالميّة، قم المقدَّسة.

# Rise, Fall of Civilizations from the Holy Qur'an's Perspective

◆ **Reviewed by: Sheikh Mohammad Baqir Haidar**

Lebanese doctoral researcher in Quranic Studies, Al-Mustafa International University, Holy Qom.

## ■ Abstract

The book " Rise, Fall of Civilizations from the Holy Qur'an's Perspective" seeks to identify the laws governing societies and civilizations, specifically those that drive their flourishing or their collapse.

The book proceeds from a premise that emphasizes the social dimension of human life and views the movement of history through the lens of divine laws; history is not merely a collection of scattered events but a sequence of ordered occurrences whose underlying causes and governing principles can be uncovered. It examines the Qur'anic concept of "Sunnah" (divine law), elucidating the fundamental principle that governs all social laws. Furthermore, it derives from the Qur'an eight laws that lead to the fall of civilizations, contrasted with three essential keys to the development and prosperity of societies.

The book concludes by exploring the future of the world and the end of history, affirming that Qur'anic principles dictate the ultimate triumph of truth over falsehood and the eventual establishment of the rule of the oppressed, the followers of the prophets (peace be upon them).

## Keywords:

Rise of Civilizations, Fall of Civilizations, End of History, the Holy Qur'an, Perspective of Divine laws.

**بطاقة الكتاب**

**اسم الكتاب:** ظُهُورُ الحَضَارَاتِ وَسُقُوطُها مِن مَنظَارِ القُرآنِ الكَرِيمِ
**اسم الكتاب بالفارسية:** «ظهور وسقوط تمدن ها از ديدگاه قرآن»
**المؤلف:** علي كرمي فريدني
**الناشر:** مؤسسة نسيم انتظار، قم المقدَّسة
**اللغة الأصلية:** الفارسية
**عدد الصفحات:** ٦٠٣
**سنة النشر:** الطبعة الأولى ١٩٨٨ م، الطبعة الخامسة ٢٠٠٩ م

## محتويات الكتاب

يتألَّف الكتاب من اثني عشر فصلاً، تمتدّ على أكثر من ٦٠٠ صفحة. وقد عالج المؤلّف في الفصول الأربعة الأولى المسائل النظرية المرتبطة بالمجتمع والتاريخ من وجهة نظر قرآنية. أما في الفصلين الخامس والسادس فاهتمَّ الكاتب ببيان مفهوم السُّنَن في القرآن ودراسة خصائصها وميزاتها. وخصّص المؤلِّف الفصول اللاحقة لاستكشاف القوانين الحاكمة على المجتمع والتاريخ، مبيِّنًا القوانين المؤدِّية إلى تطوّر المجتمع والحضارات، والقوانين المؤدِّية إلى ضعفها واندثارها. أما الفصل الأخير فتعرّض فيه الكاتب للخصائص الاجتماعية

والحضارية للدولة الموعودة لصاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

## الفصل الأول: المجتمع وخصائصه

يبحث الفصل الأول في مسألتين رئيستين: الدافع الأساس للحياة الاجتماعية عند الإنسان، وأصالة الفرد والمجتمع.

في المسألة الأولى يبيّن الكاتب وجود ثلاثة آراء مُهمّة: رأي يعتبر أنَّ الدافع الأساس للحياة الاجتماعية أمر فطري وغريزي، ورأي يرى أنَّ الدافع عقلي وفكري، ورأي ثالث يقول بأنَّ الدافع أمر خارج عن الإنسان يتمثَّل بالتحديات الموجودة في الحياة التي لا يمكن مواجهتها إلا بالحياة الاجتماعية. ويرجّح المؤلِّف أن يكون الرأي الأول، أي الدافع الفطري والغريزي، هو الرأي الأقرب إلى القرآن الكريم، مستدلاً بمجموعة من الآيات، أبرزها قوله عزّ وجلّ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣].

أمّا في ما يرتبط بالمسألة الثانية، أي: أصالة الفرد أم أصالة المجتمع؟ فيرى المؤلّف أنَّ الأوفق للنظر القرآني هو القول البعيد عن التفريط والإفراط الذي لا ينفي المسؤولية الفردية، ولا يلغي وجود المجتمع. ويستدل على ذلك بوجود آيات تؤكّد المسؤولية الفردية ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ [المدثر: ٣٨]، وآيات أخرى تتحدَّث عن مسؤولية المجتمع كلّه ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: ١٤١]، وتجعل للأمم شخصية واقعية وحياةً وموتًا، وتبيّن أنَّ للأمّة أجلاً وكتابًا.

## الفصل الثاني: التاريخ مرآة الاعتبار

في هذا الفصل يتصدّى المؤلّف (علي كرمي فريدني) لإشكالية «مصداقية التاريخ»، مفنّدًا الرؤى التي تعتبر التاريخ مجرد أساطير أو «أكاذيب متّفق عليها»، مثبتًا إمكانية الاستفادة

الضخمة من التاريخ وعبره.

ويعدّد الكاتب الأسباب الموجبة إلى سوء الظنّ بالتاريخ وأهمّها: أنَّ التاريخ مليءٌ بالتعصّب والتحيّز في نقل الوقائع، وأنَّ المنتصر والقوي يكتبان التاريخ كما يناسبهما، وقلّما تسلم حادثة تاريخية من التحريف والوضع. ثمّ يفنّد هذه الأسباب معتبراً أنَّها لا تنتج عدم اعتبار التاريخ، إنَّما تولّد صعوبات في الوصول إلى الحوادث الحقيقية، لكنّ الباحث الواعي يستطيع تخطّي هذه الصعوبات واكتشاف الحقائق التاريخية.

ويرى المؤلّف أنَّ القرآن الكريم اعتنى كثيراً بالمسائل التاريخية وأولاها اهتمامًا بارزًا، ما يشير إلى إعطاء القرآن قيمة واعتبارًا عاليًا للمسائل التاريخية. ويعتبر الكاتب أنَّ القرآن الكريم يصرّ كثيراً على السير العلمي في الزمان والمكان، ومطالعة تاريخ الأقوام السابقة، واستنتاج القوانين الحاكمة على التاريخ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

من ناحية أخرى، يتطرّق المؤلّف إلى وجود ثلاثة أساليب معتمدة في معالجة التاريخ: الأسلوب النقلي الذي يركّز على رصد الحوادث والوقائع التاريخية وتسجيلها زمنيًّا كما حدثت، مهتمًّا بالأسماء والتواريخ والأرقام، والأسلوب العلمي أو التحليلي الذي يتجاوز السرد التاريخي ليبحث في العلل والروابط الكامنة وراء الأحداث/ وأسلوب فلسفة التاريخ الذي يبحث عن المعنى الكُلِّي لحركة التاريخ وغايته. ليخلص إلى أنَّ أسلوب القرآن الكريم في نقل التاريخ كان مبتكرًا جدًّا، يجمع بين الأساليب الثلاثة المذكورة ليحقّق هدفه في تربية الإنسان والمجتمع وهدايتهما.

ويختم المؤلّف الفصل الثاني باستعراض ٢٥ مسألة مُهمّة يمكن استنتاجها من القصص التاريخية في القرآن الكريم، أهمّها: دفع الإنسان إلى التفكّر، وهدفيّة حركة الطبيعة والتاريخ، ودور الإنسان في صناعة التاريخ، وعجز الإنسان أمام قدرة الله، ووجود القوانين الحاكمة للمجتمع والتاريخ، وتأثير العامل المعنوي في حركة التاريخ...

## الفصل الثالث: حركة المجتمع والتاريخ خاضعة للقوانين

يخصّص المؤلّف الفصل الثالث للتأكيد على وجود قوانين تنظّم حركة المجتمع والتاريخ، وسيستدل على ذلك باستعراض سبع طوائف من الآيات القرآنية الدالّة على ذلك، وهي:

- **الطائفة الأولى:** الآيات التي تستعمل مصطلح السُّنَّة والسنن للدلالة على وجود قوانين مطّردة وشاملة تحكم حركة المجتمع والتاريخ ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٧ و١٣٨].
- **الطائفة الثانية:** الآيات التي تتحدث عن وجود أجل وكتاب وحساب لكلّ أُمّة ومجتمع ﴿**وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ**﴾ [الحجر: ٤ و٥]. ﴿**وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الجاثية: ٢٨].
- **الطائفة الثالثة:** الآيات التي تبيّن وجود قوانين لحركة التاريخ والمجتمع، فتعلن أنَّ مصير الأُمّة مرتبط بأفعالها على نحو القضية الشرطية ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٦].
- **الطائفة الرابعة:** الآيات التي تدعو إلى الاعتبار من مصير الأقوام الكافرة والمستكبرة ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾ [القصص: ٥٨ و٥٩].
- **الطائفة الخامسة:** الآيات التي تدعو الناس وتشوّقهم للسير في الأرض ومطالعة أخبار الماضين وفهم السنن الحاكمة على المجتمعات ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**

﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

- **الطائفة السادسة:** الآيات التي تبيّن أسباب وقوانين انتصار الصالحين على أعدائهم ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥٠].
- **الطائفة السابعة والأخيرة:** الآيات التي تتضمن أمثلة تبيّن واقع القوانين الحاكمة على حركة التاريخ والمجتمع ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

## الفصل الخامس: مقاربة لمفهوم السُّنّة

يبحث الكاتب في هذا الفصل عن المعنى اللغوي والاصطلاحي والقرآني لمفهوم «السُّنّة»، ويخلص إلى مجموعة من النتائج:

١. وردت مفردة «السُّنّة» ١٦ مرة في القرآن الكريم، ضمن ١١ آية و١٠ سور قرآنية.
٢. لا يوجد خلاف بين اللغويين والمفسِّرين في معنى السُّنّة، فكلاهما مُتَّفقان على معناها.
٣. المعنى اللغوي للسُّنّة يستبطن المداومة والتكرار، "فلا يقال سُنّة إذا فعلها مرّة أو مرّتين... لأنَّ السُّنّة هي الطريقة الجارية".
٤. لا تنحصر السُنَن الحاكمة على المجتمع والتاريخ بالآيات التي وردت فيها كلمة "سُنَّة"، بل إنَّ كلّ قاعدة كُلِّيَّة حاكمة على المجتمع هي سُنّة ولو لم تُستعمل فيها هذه الكلمة بالخصوص.

٥. المعنى الواسع للسُّنَّة هو الطريقة والسيرة التي يعتمدها الله في إدارة أمور العالم والإنسان. وهذا المعنى يشمل السُّنَن والقوانين الطبيعية، والسُّنَن والقوانين الاجتماعية والتاريخية. أما المعنى الأضيق الذي يختص بالسُّنَن الاجتماعية والتاريخية فيمكن التعبير عنه بـ: سلسلة ردّات الفعل الطبيعية الناتجة عن سلوك المجتمعات والحضارات.

## الفصل السادس: خصائص السُّنَن الاجتماعية

يستعرض المؤلّف في هذا الفصل إحدى عشرة ميزة من ميزات السُّنن الاجتماعيّة وخصائصها من وجهة نظر القرآن الكريم، وهي على النحو الآتي:

١. العموميّة والشمول: السُّنَن الاجتماعيّة عامّة وشاملة لجميع المجتمعات والشعوب، فهي تشبه القوانين الطبيعيّة في انطباقها على المجتمعات والحضارات كافّة.
٢. الاستمراريّة والدوام: السُّنَن الاجتماعيّة، كما كانت حاكمة على حركة التاريخ والمجتمع في الماضي، فهي كذلك اليوم وفي المستقبل.
٣. عدم التخلّف: السُّنن الاجتماعيّة قطعيّة لا تتخلّف أبدًا؛ فمتى ما وجبت المقدّمات وجبت النتيجة. فالسُّنَن الاجتماعيّة شبيهة بالقضايا الشرطيّة التي لا تتخلّف فيها النتائج عن أسبابها.
٤. غير قابلة للتبديل: السُّنَن الاجتماعيّة قوانين ثابتة لا تتبدّل، فكل عمل له نتيجة تناسبه ولا يمكن تبديل هذه النتيجة بأخرى. فالظلم له عاقبة لا يمكن تبديلها بعاقبة عمل آخر.
٥. غير قابلة للتحويل: كما أنَّ السُّنن الإلهيّة لا تقبل التبديل، فهي لا تقبل التحويل أيضًا، والفرق بين التبديل والتحويل أنَّ التبديل يرتبط بأصل السُّنّة الإلهيّة، أما التحويل فيرتبط بتفاصيلها النوعيّة والكمّيّة، كالشدّة والضعف والعموم والخصوص.

٦. ترتبط بالحياة الاجتماعيّة للإنسان: السُّنن الاجتماعيّة ترتبط بحياة الإنسان الاجتماعيّة، ولا ترتبط مباشرةً بالقوانين الطبيعيّة الموجودة في العالم.
٧. الربّانيّة: ترتبط السُّنن الاجتماعيّة بالله عزّ وجلّ، لذا يعبرّ عنها أحيانًا بالسُّنن الإلهيّة، وهذا مقابل التفكير الماديّ الذي يربط السُّنن الاجتماعيّة بحركة التاريخ ويفصلها تمامًا عن إرادة الله عزّ وجلّ.
٨. دنيويّة: السُّنن الاجتماعيّة مرتبطة بالأعمال التي تمارس في الحياة الدنيا، وتظهر نتيجتها في الحياة الدنيا أيضًا، ولا يمنع هذا من أن يكون لها نتائج أخرويّة أيضًا، لكن المعيار هو وجود أثر للعمل في عالم الدنيا.
٩. ذات أثر اجتماعيّ عام: من ميزات السُّنن الإلهيّة أنها تعمّ بنتائجها أفراد المجتمع، فعند حصول سُنّة معيّنة في مجتمع ما، فإنَّها ستؤثّر على جميع أفراد ذلك المجتمع، صالحهم وطالحهم.
١٠. ذات زمان اجتماعيّ: نتائج الأعمال الفرديّة سريعة، أما السُّنَن الاجتماعيّة فهي ترتبط بالعمر الاجتماعيّ والزمان الاجتماعيّ، وهو يكون ممتدًّا وطويلاً عادةً. فحركة المجتمعات وحياتها وتطوّرها أطول زمانًا من حركة الأفراد وحياتهم.
١١. منسجمة مع الاختيار الإنسانيّ: السُّنن الاجتماعيّة لا تنافي اختيار الإنسان وحُريته، إنَّما السُّنن الاجتماعيّة هي حصيلة اختيار الناس وقراراتهم. والقرآن الكريم يؤكّد على وجود أصلين هما: السُّنن والقوانين الحاكمة على المجتمع والتاريخ، والاختيار الإنسانيّ المنتج لهذه السُّنن، فلا تنافي بينهما أبدًا.

## الفصل السابع: خلاصة القوانين الحاكمة على المجتمع والتاريخ

يشكّل هذا الفصل مقدّمة للفصول الأربعة القادمة التي يحلّل فيها الكاتب القوانين والسُّنن الاجتماعيّة تفصيلاً. لذا، عمد في هذا الفصل إلى تلخيص النتائج السابقة التي توصّل إليها،

مضيفًا فكرة رئيسة مفادها أنَّ السُّنَن الاجتماعيّة على اختلافها هي تعبير عن أربع روابط رئيسة، وهي: الارتباط مع الله الخالق، والارتباط مع الطبيعة، والارتباط الموجود بين أفراد المجتمع، وارتباط أفراد المجتمع مع فطرتهم والمواهب العقليّة والعاطفيّة التي يملكونها. فعندما تكون هذه الروابط صحيحة يتطوّر المجتمع وينمو، وعندما تفسد هذه الروابط أو بعضها سيفقد المجتمع بعض مواهبه، وتحلّ عليه مجموعة من المشاكل والتحدّيات التي تصل أحيانًا إلى هلاكه واندثاره.

## الفصل الثامن: القوانين الحاكمة على المجتمع والتاريخ

يعرض المؤلّف في هذا الفصل القوانين الكلّيّة الحاكمة على حركة المجتمع والتاريخ لتشكّل معبرًا نحو دراسة قوانين تطوّر الحضارات وقوانين انهيارها. فيبدأ بالتأكيد على أنَّ القرآن الكريم يقرّر أنَّ للمجتمعات والحضارات حياةً وموتًا مثلها مثل الإنسان، وأنَّ العوامل المؤثّرة في موتها وحياتها ترتبط بنمط التفكير السائد فيها واستراتيجيات الإدارة والسياسة المتّبعة. وتشير مجموعة من الآيات بوضوح إلى حياة الأمم وموتها ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٤].

ثمَّ يعرض لوجود مراحل في حياة المجتمع فضلاً عن وجود موت وحياة، فالقرآن الكريم يشير بوضوح إلى أنَّ لكلّ حضارة مراحل حياة وتحوّلات وتبدّلات، ولكلّ حضارة تطوّر وسقوط. ويؤكّد القرآن الكريم على أنَّ هذا التغيّر، أي تطوّر الحضارات وسقوطها، قانون حتمي لا يتبدّل ولا يتغيّر. وهذا القانون يشكّل تنبيهًا للمستكبرين وأملاً للمستضعفين، ودعوة للشعوب والمجتمعات كلّها إلى الأخذ بأسباب القوّة لتغيير حالها وصناعة مستقبلها.

ويختم الكاتب هذا الفصل ببيان القانون الأشمل الحاكم على تطوّر الحضارات وسقوطها، ومفاده أنَّ التطوّر والسقوط هما نتيجتا اختيار الناس وأفعالهم، فالنعم والمواهب الإلهيّة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعقائد الناس وأفكارهم وأعمالهم. وقد بيّن القرآن هذه المسألة بأشكال

مختلفة أهمّها:

١. ربط التحوّلات الاجتماعيّة بالتحوّلات الداخليّة ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ**﴾ [الرعد: ١١].

٢. بيان الارتباط الواقعيّ بين سعادة المجتمع وأفعاله ﴿**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**﴾ [الإسراء: ٧].

٣. توضيح العلاقة بين الظواهر الطبيعيّة وأفعال الناس ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٦].

٤. التأكيد على أنَّ تطوّر المجتمع مرتبط بعمله ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا**﴾ [الكهف: ٥٩].

٥. بيان تأثير الصلاح والفساد على التحوّلات الاجتماعيّة ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الروم: ٤١].

## الفصل التاسع: سرّ تراجع المجتمعات والحضارات وانهيارها

يبحث المؤلّف في هذا الفصل عن القوانين الحاكمة على ضعف المجتمعات والحضارات وتراجعها وتفكّكها واندثارها، ويخلص إلى وجود مجموعة من السنن الاجتماعيّة في هذا الميدان:

١. الكفر بالله عزّ وجلّ وإنكار الوحي وعدم قبول الحق، وقد قصّ القرآن الكريم مصير كثير من الأقوام والمجتمعات الكافرة كعاد وثمود ﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ**﴾ [القمر: ١٨ و١٩].

٢. مواجهة الأنبياء ورفض تعاليمهم ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا﴾ [الإسراء: ٧٦ و٧٧].

٣. الظلم والطغيان والتعدّي على حقوق الآخرين، وهذا من أهم أسباب انهيار المجتمعات وزوالها ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١]، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

٤. التفرقة والاختلاف، فالمجتمع الفاقد للتماسك واللحمة الداخلية مصيره التفكّك والانهيار ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٥. وجود فوارق كبيرة جدًّا بين الطبقات الاجتماعيّة، وقد عدَّ المؤلف قصة سبأ أنموذجًا لهذه السُّنّة الإلهيّة ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

٦. الترف المتمثّل بامتلاك الثروات وانعدام الرقابة ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٥].

٧. ارتكاب الذنوب يؤدّي إلى انحطاط المجتمع ويفقده القدرة على تشخيص مصالحه ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا

**هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾** [غافر: ٢١].

٨. السقوط الخُلُقيّ بداية الانهيار الاجتماعيّ وزوال الحضارات **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾** [الإسراء: ١٦].

## الفصل العاشر: سرّ تطوّر المجتمعات وازدهار الحضارات

يبدأ الكاتب هذا الفصل بالتأكيد على أنَّ من فوائد السُّنَن الاجتماعيّة أنَّها تعطي المجتمع فرصة لتغيير مصيره وإصلاح حاله، فعندما يشاهد المجتمع أنَّه يسلك مسلك الهلاك، وينحو نحو أفعال تستوجب عذابًا وانهيارًا، يمكنه أن يصحّح مسيره مقتديًا بفهمه لسنن المجتمع والتاريخ. وقد أكّدت الآيات القرآنيّة على إمكانية التصحيح، بل إنَّ صميم دعوة الأنبياء كان ترك سبل الهلاك والإنابة إلى سبل الفلاح **﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾** [نوح: ١٠-١٢].

بعدها يبحث المؤلِّف عن أهم القواعد والسنن الاجتماعيّة الدخيلة في تطور المجتمع وازدهاره. ويخلص إلى وجود ثلاثة مفاتيح أساس، تشكِّل نواة استمرار وازدهار المجتمعات والحضارات، وهذه المفاتيح هي: العدالة والحرية والإيمان.

ويرى المؤلِّف أنَّ استقرار حياة الإنسان ورشده، واستقرار البناء الاجتماعيّ والحضاريّ يحتاجان إلى هذه المفاتيح الثلاثة، فلا يمكن لحضارة أن تنمو وتزدهر ازدهارًا صحيحًا إلا في ظل هذه المفاهيم الثلاثة. لذا كانت دعوة الأنبياء قائمة عليها **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾** [الحديد: ٢٥]، **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ**

**وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [الأعراف: ١٥٧].

## الفصل الحادي عشر: مستقبل العالم

بعدما أنهى المؤلِّف استعراض القوانين الحاكمة على تطور وانهيار المجتمعات، يطرح في هذا الفصل سؤالاً حول مستقبل العالم، هل سيكون المستقبل ذاخرًا بالخير والرفاه؟ أم سيكون حاله كحال أكثر التجارب الإنسانيّة الماضية مليئًا بالظلم والعدوان؟

ينطلق الكاتب في جوابه من مجموعة من القواعد القرآنيّة الكليّة الحاكمة على حركة التاريخ ليؤكِّد أنَّ مستقبل البشريّة والعالم هو حتمًا مستقبل واعد، معتبراً أنَّ من القواعد الثابتة والحتميّة انتصار الحق على الباطل **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾** [الأنبياء: ١٨]، وغلبة نهج الأنبياء والمؤمنين على سائر الطرق والمذاهب **﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾** [غافر: ٥١].

ويشير المؤلِّف إلى قانون وراثة الأرض، حيث يرث المستضعفون العالم **﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾** [القصص: ٥]، ويديرونه وفق تعاليم الوحي وقواعد التوحيد **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [النور: ٥٥]، فيسود الأمن والسلام العالم، وتقوم حياة الإنسان على الحق ومراعاة حقوق الله وحقوق الناس.

## الفصل الثاني عشر: تحقّق الآمال في عصر الظهور

اختار المؤلِّف في الفصل الأخير من الكتاب أن يستعرض بعضًا من الخصائص الحضاريّة

والاجتماعيّة لحكومة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في زمن ظهوره، والتي تشكِّل مثالاً أعلى لكل المجتمعات والحضارات. وقد عدَّد مجموعة من خصائص المجتمع المهدويّ المذكورة في الروايات الشريفة، أبرزها: محو الظلم وترسيخ العدالة، والسعي الحقيقي لإيجاد المساواة بين البشر، وعمارة الأرض والزمان، والتكامل العلميّ والثقافيّ، ورضا الناس تجاه النظام الإداريّ الحاكم على المجتمع، وتحقّق الرفاه الاقتصاديّ، وحاكميّة الدين في المجتمع، والتطوّر الهائل في الصناعة والاتصالات...

## الخاتمة

يُعَدّ هذا الكتاب من الكتب الأولى التي عالجت موضوع السُّنَن الاجتماعية في الحوزة العلمية في قم المقدَّسة. ويتميّز بلغته السهلة الرشيقة، ومعالجته الواسعة للآيات القرآنيّة، وشموله لكثيرٍ من القوانين والسُّنَن الاجتماعية، وهذا ما أعطاه مكانة مرموقة في المكتبة القرآنيّة، فأعيد نشره وطباعته مرات عدّة.

وعلى الرغم من ميزاته العديدة، تغيب عن الكتاب مسألتان مُهمّتان خصوصًا في زمننا الحاضر، أُولاهما هندسة السنن الاجتماعية، وبعبارة أخرى تفاعل السُّنن الاجتماعية في ما بينها: فهل تغلب بعض السُّنن الاجتماعية السُّنَن الأخرى؟ وهل هناك نظامٌ تراتبيٌّ في ما بينها؟

المسألة الثانية ترتبط بالعناصر الداخليّة للسُّنَن الاجتماعية: فهل هذه العناصر الداخلية المكوّنة للسُّنَن الاجتماعية هي عناصر واضحة يمكن استخراجها من القرآن الكريم؟ أم أنَّها عناصر غير قابلة للتحديد الدقيق والقياس العلميّ؟

وعلى كل حال، يبقى كتاب «ظهور الحضارات وسقوطها من منظار القرآن الكريم» أثرًا قيّمًا يغني المكتبة القرآنيّة، ويفتح أمام الباحثين كثيراً من الآفاق والأسئلة التي تحتاج إلى بحث وتحليل.